الإطار التاريخي للجزيرة العربية
(وقفة للتأمل)

أ.د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري *

لعل التسمية الحقيقية التي يمكن أن نعتمد عليها في وحدة الجزيرة العربية حضارياً وسياسياً وجغرافياً هي ما ورد عن الرسول ﷺ حيث قال (لا يجتمع دينان في جزيرة العرب)وهو الحديث الذي اعتمد علية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضى الله عنة في تتبعه للجيوب غير المسلمة في عصره وإخراجهم من بلاد العرب .والأثر الآخر والذي يقول ما معناه "إن جزيرة العرب ستعود مروجاً وأنهاراً "فالحديث الثاني يتحدث عن عصور جليدية ومطيرة عاشتها الجزيرة العربية وذلك قبل أن يتوصل الجيولوجيون والجغرافيون إلي العصور المختلفة وإلي محاولة تزمينها بملايين السنين وفية أيضاً أن جزيرة العرب ستدخل في مرحلة جديدة لابد وأن تكون واقعة في مستقبل العشرات أو المئات أو الآلاف أو الملايين من السنين وتلك قضية لا يسعنا إلا أن نقبلها لأنها جاءت عن النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي .

وجزيرة العرب وهي التي تبدأ من بادية الشام شمالاً إلي بحر العرب جنوباً ومن الخليج شرقاً إلي البحر الأحمر غرباً مرت بأحقاب وأزمنة كغيرها من أرض الله الواسعة ومع ذلك فإننا لا نزال نقف حائرين أمام فتراتها التاريخية المتلاحقة والتي تبدو للوهلة الأولى أنها غير متتالية بل هي منقطعة .فبالنسبة لعصور ما قبل التاريخ أو ما يمكن أن نسميه بالعصور الحجرية وهي التي تلت العصور الجيولوجية ،نجد الاهتمام بها لم يبدأ إلا في النصف الأول من القرن العشرين. أما الاهتمام بالعصور التاريخية في بلاد العرب وخاصة في أقصى الجزء الشمالي وفي أقصي الجزء الجنوبي منها فقد كان مرتبطاً بالدراسات الغربية فمنها ما هو مرتبط بالدراسات التوراتية ومنها ما هو مرتبط بالدراسات اليونانية ومنها ما هو مرتبط بالدراسات الرومانية وسارت الكشوف الأثرية وهي معول أساسي للبناء التاريخي لتزمين أي بقعة من الأرض في ركب هذه التصورات الحضارية التي فرضها المكتشفون الغربيون بحكم تقدمهم العلمي في مضمار الآثار وبحكم طموحاتهم الاستعمارية وبحكم التأكيد علي أن هذه المناطق ما هي إلا تبع لدائرة مركزها أثينا أو روما أو بيزنطة وبالتالي فإن حضارة الجزيرة العربية تدور في هذا الفلك ولا تنفك منة ،أو بمقياس التوراة الذي جعل الحركة التاريخية تدور مع أحداث بني إسرائيل بالطريقة التي يجدون فيها بغيتهم بربط أولاد إسماعيل بحركة تاريخ ونشاط أبناء إسحاق .

ولذلك فإن الحركة التاريخية لفترات ما قبل الإسلام في أبحاث علماء الآثار الغربيين ومن نحا نحوهم من الآثاريين العرب لم تستطع بناء تصور محلي لتسلسل تاريخي .

أما عندما ننظر إلي رصيدنا من التراث العربي والإسلامي فأننا نجدة قد تلبسته اتجاهات عدة لعبت دوراً أشعر أنه كان سبباً في عدم قدرة المؤرخ علي وضع تسلسل تأريخي يشمل الجزيرة العربية إذ نجد أحداثها تأتي مجزأة ومبتسرة لا رابط بينها وفي كثير من الأحوال

---

* عميد كلية الآداب الأسبق – جامعة الملك سعود – وعضو مجلس الشورى – المملكة العربية السعودية .

نجد أن تصورات معينة أصبحت مسلمات لا يجوز زعزعتها أو المساس بها .ذلك لأن من أهم الاتجاهات التي لعبت بتاريخنا إذا ما راقبناها من خلال النص العربي الإسلامي نجدة وقد تنازعته القبلية من جانب والشعوبية من جانب آخر .

فالقبلية قد برزت بكل شراستها وبكل قدراتها علي التفتيت مع بداية النشاط البشري في العصر الإسلامي الأول وأعني به العصر الأموي والعصر العباسي الأول،وفي مرحلة لاحقة برزت الشعوبية لتلقي بظلالها علي تاريخ العرب أيضاً ولتسلبهم كثيراً من نشاطهم الفكري والاقتصادي والاجتماعي ولتجعلهم حفنة من البشر لا يقدرون علي صنع حضارة تضاهي حضارة فارس ومجد فارس وألف مؤلفون في هذا الاتجاه كما ألف العرب في الاتجاه الآخر وفي هذا الخضم الضخم من الميراث المعقد أصبح المؤرخ في حيرة من أمره .

وعندما يأتي المؤرخ العربي الحديث ليكتب تاريخ الجزيرة العربي ويحاول تطبيق منهج علمي دقيق يعتمد علي الفحص والتدقيق والمقارنة والاستفسار والإجابة يصطدم بمسلمات دلت في اللاوعي العربي وكأنها ذلك الحدث الذي لا يمكن الخوض فيه .ومن هنا اصبح من يحاول الاقتراب من حدود هذه المسلمات إنما يخاطر بعمله ويتعرض للنقد الجارح ,إنما يخاطر بعلمه ويتعرض للنقد الجارح ،مما يجعل المسيرة التاريخية تقف واجفة مترقبة لا تستطيع محاولة إعادة النظر في تلك المسلمات ، مع أن كثيراً من الحقائق تقف في صف المؤرخ المتبصر بالمنهج العلمي السليم والمشكلة التي يغفل عنها كثير ممن التهموا أحداث التاريخ كما جاءت في كتب التراث وحسب انتماءاتهم المتباينة فإنهم يفقدون كما قلت :القدرة علي وضع أسئلة تحاول الإجابة عن الحدوث زماناً ومكاناً ليتكون من خلال تلك الإجابات الإطار الذي يمكن أن يجمع شتات الأحداث .ومن هنا ولعدم القدرة علي وضع التصور الزمني للفترات التاريخية يقع كثير من هؤلاء في خلط للأحداث وعدم انسجامها وبالتالي ينقلون ما يجدون ويبهرون بما لا يعرفون .

سوف نحاول في هذا البحث أن نضع معالم أساسية لتصورنا لتاريخ الجزيرة العربية علي أساس من التسلسل الزمني معتمدين في ذلك علي المكتشفات الآثارية التي نجد من الأهمية بمكان أن ندخلها في نسيج البناء التاريخي كي ننظر بمنظار جديد مبتعدين قدر المستطاع عن التداخل الانتمائي الذي قد ينحرف بالمؤرخ عن جادة الصواب ومخففين عاطفتنا تجاه شمال أو جنوب لكيلا نقع فيما وقع فيه من كان قبلنا ولكيلا يسير من يجئ بعدنا فيما وقع فيه أسلافنا .

ولنبدأ بالحديث عن العصور الحجرية التي مرت بها الجزيرة العربية ،إذ أنة أصبح من المعروف أن تاريخ الأدوات الحجرية في العصر الحجري القديم يبدأ بظهور الأدوات الحصوية التي تعتبر أقدم دليل علي ظهور صناعة الأدوات الحجرية .

وتقع شبة الجزيرة العربية في موقع استراتيجي جغرافي عند ملتقى قارتي آسيا وأفريقيا اللتين نشأ فيهما أقدم الحضارات وقد اكتشفت أقدم الأدوات الحجرية في كل من سوريا ولبنان وفي الأردن وكذلك وفي فلسطين .أما بالنسبة لوسط الجزيرة العربية فقد عثر علي أدوات تنتمي إلي العصر الحجري القديم المبكر في منطقة الدوادمي ويمثل فأس فريد من نوعه نموذجاً أشولي، وفي الربع الخالي جمعت مئات من الفؤوس تشبه المجموعات الأشولية الأفريقية ومثل ذلك في موقع صفاقة في منطقة الدوادمي حيث عثر علي أدوات تضم فؤوساً وسواطير وأدوات ثنائية الوجه مما توحي بفترة زمنية تتنصف العصر الأشولي ،وفي جنوب غرب الجزيرة العربية وجدت مجموعة من الحصويات الكوارتزية والأدوات الحجرية في منطقة نجران كما وجدت بعض الأدوات الحجرية كالمكاشط في تثليث بوادي الدواسر ويعتقد

أن هذين الموقعين قد ينتميان إلي فترة سابقة للعصر الأشولي وإلي ذلك يمكن أن ينتمي موقع في وادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة، أما في جنوب الجزيرة العربية في وادي عمد في حضر موت فإن التشابه بين صناعة الصوان فيه شبيهة بصناعة الصوان في الباكستان وتعود هذه الصناعة في الباكستان إلي حوالي مليون ونصف المليون سنة خلت .

ولا نجد تسلسلاً يعطينا تصوراً واضحاً لعصور ما قبل التاريخ في اليمن بل أن بعض مناطقه تكاد تخلو من العصور الحجرية كما هو الحال في وادي جوبة ولكن هذا لا يحرم المنطقة من فترات حجرية لم تكتشف بعد حتى يمكن أن تكمل أو تدخل أو تشبه الفترات التي وجدت في المناطق الأخرى من الجزيرة العربية ، ويبدو أن الإنسان قد انتجع شمال الجزيرة العربية في زمان موغل في القدم ولعل الهجرة المبكرة للإنسان من أفريقيا إلي شبة الجزيرة العربية حدثت عبر طريقين :**الطريق الأول** يسير عبر النيل إلي شبة جزيرة سيناء ثم إلي شمال الجزيرة العربية في مرحلة لا تبعد عن منتصف المليون الثاني قبل الآن .

والطريق الثاني ربما تم بأطواف خشبية عبر البحر الأحمر إلي جنوب غرب الجزيرة العربية وخاصة منطقة نجران.

وبعد هذه اللمحة السريعة عن العصور الحجرية نحاول أن نستعرض صورة أخرى لحضارة الجزيرة العربية وهي الرسوم الصخرية إذ يزخر شمال الجزيرة بكمية هائلة من الرسوم في شمالها وشمالها الغربي وغربيها ووسطها والأطراف الشمالية للجنوب .

ففي المنطقة الشمالية الغربية تنتشر الرسوم في كلوة وفي الحناكية وفي المنطقة الممتدة بين مدائن صالح وخيبر وفي أرض مدين تعتبر رسوم كلوة من أقدم الرسوم الصخرية ومما هو لافت للانتباه في مجموعة كلوة شكل لحيوان شبيه بالبقرة ذو قرون طويلة ورأس مستطيل ، طوله حوالي المترين وقد نحتت فوق رسوم سابقة لمجموعة من وعول صغيرة ذات قرون طويلة .ويتضح التشابه بين الرسوم الصخرية بكلوة والفن الإغريقي في شكل إنسان يجلس القرفصاء تحت ثور ويداه مرفوعتان فوق رأسه ،ولهذا الشكل ما يشبهه في الرسوم الصخرية بمنطقة فزان في شمال أفريقيا وغير ذلك من الرسوم إلي جانب رسوم أخرى لها علاقة تشابه بالرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى .

وقد تأرجح العلماء في تحديد الفترة التاريخية لهذه الرسوم الصخرية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط ، أما رسوم الحناكية فإنها أرخت ما بين الألف الرابعة والألف الثانية قبل الميلاد ويسبقها في القدم الفنون الصخرية التي تقع بالقرب من خيبر والتي تشبه رسوم كلوة.

أما في المنطقة الشمالية فيعد موقع جبة من أكثر المواقع الذائعة الصيت إلي جانب مواقع أخرى، وتعود أنماط الرسوم الصخرية لها إلي العصر الحجري الحديث وهكذا نجد الرسوم بعدئذ في عسير وبيشة وفي بئر حما والخماسين وأبها وهي رسوم لمجموعات سكانية يبدو أنها كانت تمارس حرفة الصيد خلال الفترة المبكرة للعصور المطيرة .

وعلي أي حال فإن فترات الرسوم الواقعة في المنطقة الجنوبية الغربية تتراوح ما بين أواخر الألف الخامس ومنتصف الألف الثالث قبل الميلاد وفي شمال اليمن تم العثور علي ما يربو علي الخمسين موقعاً زاخراً بالرسوم الصخرية حيوانية وبشرية تشبه الرسوم الصخرية الأخرى المنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية ويعتقد أنها تنتسب إلي العصر البرونزي .

ومما سبق يتضح أن مواقع الرسوم الصخرية في الشمال مثل منطقة كلوة وغيرها من المناطق التي يعود تاريخها إلي العصر الحجري القديم هي الأكثر قدماً ، هذا بالإضافة إلي أدوات ما قبل الأشولي التي عثر عليها في بعض المواقع في الشمال .كل ذلك يشير إلي أن الشمال كان أقدم المناطق التي قطنها الإنسان في الجزيرة العربية .

والسؤال الذي يمكن أن يطرأ علي الذهن : ما علاقة هذه الرسوم بنشأة الكتابة في الجزيرة العربية ؟إذ أن هناك فراغاً كبيراً بين نشأة الكتابة في مراكز الحضارات المجاورة في وادي الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل وبين نشأتها في الجزيرة العربية ويلي هذا السؤال سؤال آخر عن المنطقة التي انتقلت منها الكتابة إلي الجزيرة العربية وإلي جنوبها بشكل خاص .

إن هناك نظريات كثيرة قيلت حول الكتابة التي انحدرت منها كتابات الجزيرة ولكننا يمكن في هذه المرة أن نعرض للنظرية التي تقدم بها د. مجيد خان الباحث في وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف في المملكة العربية السعودية الذي يرى أن في المراحل المختلفة لتطور الرسوم الصخرية عبر العصور الحضارية المختلفة تغيرت الرسوم من التصاوير الكاملة والواقعية للأشكال الآدمية والحيوانية إلي الأشكال المصغرة البسيطة ثم بلغت قمة تطورها في العصر البرونزي إذ رسمت الأبدان بهيئة خطوط تجريدية قصيرة صفت بترتيب معين ربما يكشف عن محاولة للتعبير والاتصال ،ويعتقد د. مجيد أن هذه المراحل التطورية مهدت لظهور الكتابة وأن مجموعة من كتابات القوافل ربما كانت تحتفظ وتصور مرحلة تعد المرحلة المفقودة.

هذه النظرية رغم أنها تبدو غير مقنعة إلا أنة يحسن بنا أن نعمل علي فحصها مما قد يقودنا إلي كشف نطمئن إلية ،وخاصة إذا ما ركزنا علي النقوش الباهتة التي تصحب الرسوم الآدمية المجاورة وإذا ما استعملت الوسائل الحديثة في كشف الغلالات المتراكمة patinaعلي الصخور ولعلنا نكتشف شيئاً آخر غير هذا وذلك إذا ما سرنا في هذا الطريق .

وإذا أردنا أن ننتقل إلي الفترات التاريخية ،فإننا أمام مصادر كثيرة أهمها :

١-الكتب السماوية

٢-الآثار

٣-الكتب الكلاسيكية

٤-ما كتبته الأمم المجاورة

٥-ما كتبة المؤرخون العرب والمسلمون

٦-ما كتبه الرحالة الغربيون والعرب

ولكل مصدر من هذه المصادر دور في تشكيل تصورنا التاريخي وفي مقدمتها القرآن الكريم الذي اشتمل علي كثير من القصص عن الأمم التي عاشت في الجزيرة العربية وقد أتت في القرآن للعظة والعبرة وجاءت في التوراة قصص شبيهة بقصص القرآن نقبل منها ما وافق ما جاء في القرآن ونرفض ما لم يوافق ما جاء فيه .وفي الوقت نفسه تحدثت التوراة عن ممالك عربية عاصرت أحداث التوراة وصدقت التنقيبات الأثرية وجودها كالعموريين والمؤابيين والأدوميين والعمونيين والقيداريين وهي أمم عاشت بين الألف الثاني قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول ق . م .وتعد مرحلة من مراحل تاريخ الجزيرة كما تحدثت الكتابات المسمارية عن وجود حكم عربي في شمال الجزيرة العربية منذ القرن العاشر ق.م وتتمثل في معركة قرقر والملك جندب ثم مجموعة من الملكات العربيات في دومة وتيماء كما تحدثت التوراة عن قصة نبي الله سليمان وصلته بملكة سبأ وهي قصة جاءت في القرآن الكريم وكان الهدف منها في القرآن الكريم إظهار نبي الله سليمان علي أنة النبي المرسل وملكة سبأ وقومها الذين يعبدون الشمس من دون الله وكيف أنها آمنت بالله رباً وبسليمان نبياً .أما قصة التوراة فقد نحت نحواً آخر .والذي يهمنا في إيراد هذا الحدث هو أنة حدث في القرن العاشر ق.م وهذا يعني أن القرون العاشر والتاسع والثامن والسابع شهدت حركة نشطة في شمال الجزيرة العربية وشمالها الغربي إذا ما أضفنا إلي ما سبق ذكره المدينين الذين كانوا على علاقة وثيقة بموسى- عليه السلام- في القرن الثاني عشر ق.م وكان نبيهم شعيب - عليه السلام- .

ثم انتقلت الأوضاع والنشاط السياسي والاقتصادي إلى أطراف الجزيرة العربية في الشرق على ضفاف الخليج وفي الغرب في مملكة ديان ولحيان وفي الجنوب في ممالك سبأ ومعين وحضرموت وقبان وأوسان ويبدو أن النشاط الحربي في وادي الرافدين على شمال الجزيرة العربية منذ القرن العاشر ق . م . والتي كانت آخر صورة تتمثل في الملك نبونيد في النصف الثاني من القرن السادس ق.م كان سببا في بعد القبائل العربية عن المواجهة والاحتماء برمال الربع الخالي وفي تضاعيف جبال السروات ,ولذا فان الهدوء المستمر للممالك العربية في مناطقها الجديدة منذ القرن الثامن والسابع ق.م حتى القرن الثالث الميلادي كان انكفاء هذه الممالك علي نشاط بشري تمثل في الزراعة والتجارة ولم يبدأ نشاطها الحربي إلا عندما بدأت نزعة توحيد القبائل في نظام سياسي جديد خرج ملوك سبأ وذو ريان بعدئذ ليمدوا نفوذهم إلي وسط الجزيرة وان لم تسجل الأحداث والنصوص المرقومة في أماكنها ارتقاءهم عن مستوى صعودهم جغرافيا إلى ما هو ابعد من مأسل الجمح وتثليث حيث وجدت نصوص خارج حدود ممالكهم ولكن النصوص المحلية تتحدث عن وصول بعض الملوك إلي القطيف ومنطقه الخليج !!!

ولم يكن وسط الجزيرة العربية بمعزل عن الأوضاع السياسية إذ تكون فيه كيان سياسي يتمثل في مرحلتين لدولة كندة :

المرحلة الأولي :من نهاية القرن الأول قبل الميلاد حتى بداية القرن الرابع الميلادي

والمرحلة الثانية :من القرن الرابع الميلادي حتى القرن السادس الميلادي

ولعل الممالك العربية التي نشأت في الشمال بعد الميلاد معاصرة لحمير في الجنوب وكندة في الوسط هي مملكة الأنباط ثم تدمر ثم المناذرة والغساسنة ويمثل هذا التتابع التاريخي استمراراً سياسياً تنتقل فيه القوى من مكان إلي آخر وتتحكم فيه الظروف الداخلية والخارجية بما يتناسب مع الأوضاع الاقتصادية ونشاط الطرق التجارية براً أو بحراً .

وإذا ما رجعنا إلي المصادر التاريخية الأخرى وجدناها تصب في التصور التاريخي الذي صورناه أعلاه وبالتالي فإننا ندعو إلي :

أولاً: أن يكون تصورنا التاريخي للأحداث مبنياً علي تحديد إطار زمني ،فنحن عندما نتحدث عن سبأ مثلاً فلابد أن نحدد زمان الأحداث وعن علاقة هذه الأحداث بعضها ببعض زمنياً .

ثانياً: إلي وضع إطار تاريخي تمارس فيه كتابة التاريخ هنا بما يساعد علي فهم الأحداث وبحيث نربط الشمال بالجنوب والشرق بالغرب وأن لا نرفع من قيمة إقليم معين علي حساب أقاليم أخري وأن ندخل في حسابنا التاريخي ما يمكن أن يكمن ضمن النسيج الكامل لحركة التاريخ في الجزيرة العربية .ولعلي اقترح الإطار السياسي التالي :

*الشعوب العربية البائدة :

-قبل الألف الثالثة ق.م :عاد – ثمود

*الممالك العربية القديمة :

-الألف الثالث وما قبلها :دلمون – ماجان – ملوخيا

-الألف الثاني – الألف الأول :المدينيون – العموريون – المؤابيون – العمونيين الأدوميون – القيداريون

*الممالك العربية الوسيطة :

-الألف الأول ق.م (١) :مملكة جندب – إمارات دومة وتيماء – أوسان – قتبان – سبأ الأولي (الفترة المكربية)ديدان لحيان

(٢) :حضر موت – معين – سبأ الثانية (الفترة الملكية) -الأنباط – إمارة تنوخ .

الممالك العربية المتأخرة :

*١١٥ ق.م – ٦٢٢ م :أ) كندة الأولي – حمير – تدمر .

ب) كندة الثانية – حمير الثانية – الغساسنة والمناذرة .

ج) أيام العرب – النفوذ الفارسي والروماني والبيزنطي – مكة – يثرب – اليمامة – الطائف – البحرين – حملة أبرهة .

*ظهور الإسلام :

علي أنة لا يغفل في نطاق هذا الإطار السياسي الجوانب الحضارية الأخرى .

وفي الختام :هل يجد هذا الإطار من يتجاوب معه ويقوم بمحاولة الكتابة من علي هذا النمط ؟ نرجو ذلك ،ولأن العمل سيكون جديداً وشاقاً لما يكتنفه من كثير من غير المألوف فإننا نتمنى أن تقوم هذه الكوكبة من المؤرخين الآثاريين الذين تحدثوا والذين شاركوا بأفكارهم علي تكوين فريق عمل تدعمه هذه المؤسسة المتطلعة إلي كل جهد علمي بناء ومثمر في سبيل النهوض بتراث جزيرة العرب وتاريخها ليخرج في النهاية الأنموذج الذي نرتضيه لكتابة تاريخنا مستوعبين كل ما كتب عن الجزيرة العربية في مجال التاريخ والآثار مدركين الدور الذي يقومون به والسعي إلي وضع أنموذج متطور وقابل للتطبيق حتى يمكن أن ييسر لطلاب المعرفة تطوراً جلياً يسهل استيعابه ويدخل ضمن الإطار التاريخي والزمني لتاريخ الشرق الأدنى القديم متضمناً دور الجزيرة العربية في العطاء الحضاري المتميز .